استراحة المسافر (١)

أخي المسافر أدعوك الآن لقليل من الراحة والترويح عن النفس. أدعوك إلى محطة من محطات السفر الترفيهية لتستعين بها على وعثاء السفر ومشقة الطريق. فإننا بحاجة إلى ساعة وساعة، ساعة للجد والحيوية، وساعة للراحة والترويح عن النفس خشية الملل والسآمة فإن القلوب إذا ملّت كلّت وإذا كلّت عميت. لذلك سيكون لنا بعد كلِّ مرحلةٍ من رحلتنا مع «أنيس المسافر» استراحة ترويحية ووقفة ترفيهية.

* قال أبوالأسود لابنه: يا بني إن ابن عمك يريد أن يتزوج ويحب أن تكون أنت الخاطب فَتحفَّظ خطبة.

فبقي الغلام يومين وليلتين يدرس خطبة، فلما كان في الثالث قال أبوه: ما فعلت؟ قال: قد حفظتها. قال: وما هي؟ قال: الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح. فقال أبوه: صبراً لا تُقِمْ الصلاة فإني على غير وضوء.

* يقال إن الأعمش ـ رحمه الله ـ كان له ولدٌ مغفل فقال له: اذهب فاشتر لنا حبلاً للغسيل. فقال: يا أبَه، كم طوله؟ قال: عشر أذرع. قال: في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبتي فيك.

* سأل رجلٌ الشعبي عن المسح على اللحية فقال: خلّلها. قال الرجل: أتخوّف أن لا نبلّها. فقال الشعبي: إن تخوّفتَ فانقعها في الماء من أوَّل الليل!

* لقيَ رجلٌ الشعبي، وهو واقفٌ مع امرأته، فقال الرجل: أيّكما الشعبي؟ فأومأ الشعبي إلى المرأة وقال: هذه!
* وسأله رجل فقال: هل يجوز للمُحْرِم أن يحكَّ بدنه؟ قال: نعم. فقال الرجل: مِقْدار كَمْ؟ قال: حتَّى يبدوَ العظم!

شهيد الحب:

قال محمد بن الحجاج، راوية بشار بن برد: مات لبشارٍ حمارٌ، فقال: رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له: ويلك متَّ؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً عند بابه فعشقتها، فمتُّ وأنشد:

سيدي خذ لي أمانا ... من أتان الأصبهاني
إن بالباب أتاناً ... فَضَلَتْ كلّ أتانِ
تَيَّمَتْني يوم رحنا ... بثناياها الحسانِ
وبحســـنٍ ودلالٍ ... سَلَّ جسمي وبراني
ولهـا خـدٌّ أسيـلٌ ... مثل خد الشنفراني
فَبِها متُّ ولو عشـ ... ـتُ إذاً طال هواني

فقال رجل: يا أبا معاذ، ما الشنفراني؟ قال: هو شيء يتحدث به الحمير، فإذا لقيت حماراً فاسأله.

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ
حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ
هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ
فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا
يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن

يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

[سورة النمل]

obeikandl.com

من أخبار المسافرين (١)

أبونواس يسافر إلى مصر

الشاعر العباسي الشهير ـ أبونواس ـ الحسن بن هانئ المتوفى عام ١٩٥هـ سافر من بغداد إلى مصر ليمدح أبانصر الخصيب بن عبدالحميد صاحب ديوان الخراج بها، وذلك جرياً على عادة الشعراء في رحلاتهم للملوك والأمراء والكبراء بحثاً عن المال والعطايا والهبات.

وهذه القصيدة تعتبر من أروع القصائد في الأدب العربي وقد شرَّقتْ وغرَّبتْ وحفظها الناس وأعجبوا بها أيّما إعجاب قديماً وحديثاً. قيل عنها: والله ما تصلح هذه إلاَّ في الرسول ﷺ. وقد وصف فيها رحلته وصفاً عجيباً وألبس ممدوحه ثوباً قشيباً. وحتى لا أطيل عليك أخي المسافر فقد اخترت بعضاً من أبيات هذه القصيدة وهي أجمل شيء فيها:

أجـارةَ بيْتَيْنـا أبُـوكِ غَيُـورُ ... ومَيْسُورُ ما يُرْجَى لديكِ عسِيرُ
وإن كنتِ لا خِلْماً، ولا أنت زوجَة ... فلا برحَتْ دوني عليكِ سُتورُ
وجاوَرْتُ قوْماً لا تزاوُرَ بينهمْ ... ولا وَصْلَ إلاَّ أنْ يكونَ نُشورُ
فما أنا بالمشْغُوفِ ضَرْبةَ لازِبٍ ... ولا كـلُّ سلْطـانٍ علـيَّ قـديـرُ
تقولُ التي عن بيتها خفَّ مرْكبي ... عـزيـزٌ علينـا أن نـراكَ تسيـرُ
أما دون مصْرٍ للغنىٰ مُتَطلّبٌ ... بلى إن أسْبابَ الغِنَى لكثيرُ
فقلتُ لها واستَعْجَلْتها بوادِرٌ ... جرتْ فجرَى في جرْيهنَّ عبيرُ
ذريني أكَثِّرْ حاسديكِ برحْلةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
إذا لم تزُرْ أرْضَ الخصيبِ ركابُنا ... فأيَّ فتىً بعدَ الخصيبِ تَزورُ

فتىً يشْتري حسْن الثناء بماله ... ويعْلَمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ
فما جازَه جُودٌ ولا حَلَّ دونَه ... ولكنْ يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ
فلم ترَ عيني سؤدداً مثلَ سؤدَدٍ ... يحِلُّ أبُونصْرٍ به ويسيرُ
فمنْ يكُ أمْسَى جاهلاً بمقالتي ... فإن أميرَ المؤمنين خبيرُ
زهَا بالخصيب السَّيْفُ والرُّمح في الوغَى ... وفي السِّلْمِ يزْهُو منْبَرٌ وسريرُ
جوادٌ إذا الأيْدي كفَفْنَ عن النّدى ... ومن دُونِ عَوْراتِ النساءِ غَيُورُ
له سَلَفٌ في الأعجَمين كأنهم ... إذا اسْتُؤْذِنُوا يوْمَ السلامِ بدُورُ
وإني جديرٌ إذ بلغْتُكَ بالمُنَى ... وأنتَ بما أمّلْتُ منكَ جديرُ
فإنْ تُولِني منك الجميلَ فأهْلُهُ ... وإلاَّ فإنّي عاذرٌ وشَكورُ

* * *

ويقال إن أبانوس لما عاد إلى بغداد مدح الخليفة، فقيل له: وأي شيء تقول فينا بعد أن قلت في بعض نُوَّابنا:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابُنا ... فأي فتىً بعد الخصيب تزور

فأطرق أبونواس ساعةً ثم رفع رأسه وقال:

إذا نحن أثنينا عليك بصالحٍ ... فأنت كما نُثني وفوق الذي نُثني
وإن جَرَت الألفاظ منا بمدحةٍ ... لغيرك إنساناً فأنت الذي نعني

ابن دراج يعارض أبانواس

ذكرنا الشهرة البعيدة التي حظيت بها قصيدة أبي نواس، مما جعل الشعراء يحاولون معارضتها ومحاكاتها، وهذا الشاعر ابن درّاج القسطلي المتوفى سنة ٤٢١هـ يطلب منه المنصور بن أبي عامر أن يعارض قصيدة

أبي نواس فيستجيب لذلك ويقول قصيدة رائعة في نظري أنها لا تقل في روعتها وجمالها عن قصيدة أبي نواس بل ربما فاقه في بعض أبياتها. وإليك جملة من أبياتها فهي قصيدةٌ طويلة وقد استهلَّها بالحوار مع زوجته كما فعل أبونواس، فقال:

ألم تعلمي أن الثَّواءَ هُو التَّوَى ... وأن بيوتَ العاجزين قُبورُ
تُخوِّفني طول السَّفار، وإنه ... لِتقبيل كفِّ العامريِّ سفيرُ
دعيني أردْ ماء المفاوز آجناً ... إلى حيثُ ماءُ المكرُمات نمير
فإنَّ خبيرات المهالك ضُمَّنٌ ... لراكبها أن الجَزاءَ خطير

ومنها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

ولما تَدانتْ للوَداع وقد هَفا ... بصَبْريَ منها أنَّةٌ وزفيرُ
تُناشدُني عَهْدَ المودَّة والهوى ... وفي المهد مَبْغُوم النداءِ صَغير
عَييٌّ بمَرْجوع الخطاب ولحظُه ... بمَوْقع أهواء النفوس خَبير
تبوَّأ مَمنُوعَ القلوب وَمُهِّدَتْ ... له أذرُعٌ محفوفةٌ ونحُور
فكل مُفدَّاة الترائِب مُرْضِع ... وكل مُحَيَّاةِ المحاسِن ظِير
عَصيْتُ شفيعَ النفس فيه وقادني ... رَواحٌ لتَذْآبِ السُّرى وبُكور
وطار جَناحُ البَين بي وهَفَتْ بها ... جَوانحُ من ذُعْرِ الفِراق تطير
لئِنْ ودَّعَتْ منِّي غيُوراً فإنّني ... على عَزْمتي من شَجْوِها لغيُور
ولو شاهدتني والهواجرُ تَلْتَظي ... عليَّ ورقْراقُ السَّراب يمُور
أُسلِّطُ حرَّ الهاجراتِ إذا سَطا ... على حُرِّ وجهي، والأصيلُ هَجير
وأستنشقُ النكْباءَ وهي لوافحٌ ... وأستوْطئُ الرَّمضاءَ وهي تفور
وللموْتِ في عين الجَبان تلوُّنٌ ... وللذُّعْر في سمع الجريء صَفِير

لَبَانَ لها أني من البيْن جازعٌ وأني على مضِّ الخُطوبِ صَبُور
أميرٌ على غوْل التَّنائِف ما لهُ إذا رِيع إلاَّ المشرفيُّ وَزير
ولو بصُرَت بي والسُّرى جُلُّ عزمتي وجَرْسي لِجِنّان الفلاة سمير
وأعتسِفُ الموْماة في غسق الدُّجى وللأسْد في غيل الغياضِ زَئير
وقد حوَّمتْ زهرُ النُّجوم كأنها كواكبُ في خُضر الحَدائق حُور
ودارت نجُومُ القطْب حتى كأنها كـؤوسُ مهـاً والـى بهـن مُـدير
وقد خَيَّلَتْ طُرْقُ المَجرَّة أنها على مَفرق الليْل البَهيم قَتير
وثـاقبُ عَـزْمي والظلامُ مُـرَوِّعٌ وقد غضَّ أجْفانَ النُّجوم فُتور
لقد أيقَنَتْ أنَّ المنىٰ طَوْعُ همَّتي وأنـي بعَطفِ العـامـريّ جَـدير

وهي طويلة، وفي هذا القدر منها كفاية.

مسافر في القطار

يقول إيليا أبوماضي:

سَرى يَطوي بنا الأميالَ طَيًّا ... كما تَطوي السِّجلَّ أو الإزارا
فلَم نَدرِ وجُنحُ اللَّيلِ داجٍ ... أَبرقًا ما ركِبنا أم قِطَارا
بنـا وبِـهِ حَنيـنٌ واشتيـاقٌ ... وَلَولا ذانِ مَا سِرنا وَسَارا
ولَكنَّا وَسعنا الشَّوقَ ذرعًا ... وَضَاقَ بِهِ فَصَعَّدَهُ بُخارا
وسَمَّينا الَّذي نُخفيهِ وَجدًا ... وَسَمَّينا الَّذي يُخفيهِ نارا
غفا صَحبي وبَعضُهم تَغافى ... ولَم أَذُقِ الكَرى إلاَّ غِرارا
جلَستُ أُراقِبُ الجَوزاءَ وَحدي ... كما قَد يَرقُبُ السَّاري المَنارا
يسيرُ بنا القِطَارُ ونَحنُ نَرجُو ... لَو اختَصَرَ الطَّريقَ بنا اختِصَارا
وأُقسِمُ لَو أُحَدِّثُهُ بما بي ... لَحلَّقَ في الفَضَاءِ بنا وطَارا
إلى البَلدِ الأمينِ إلى كرامٍ ... يُراعونَ المَوَدَّةَ والجِوارا
إلى المُزدادِ ودّهم لَدينا ... إذا زدْنا صِفاتهمُ اختِبارا
إذا سَتَرتْ مَحبَّتَها قُلُوبٌ ... فَحُبي لا أطيقُ لَهُ استِتارا
فيا إخوانَنا في كلّ أَمرٍ ... أصيخوا كي أُخَاطِبَكُم جِهارا
طويناهَا سباسِبَ شَاسِعات ... تَسيرُ الواخِداتُ بها حَيارى
ولَولا أنْ تسِير بنا إِلَيكُم ... ركـائِبُنـا مَشينـاهَـا اختِيـارا

ويقول الشاعر محمد يوسف مقلد في قصيدته:

ديار وقطار

ألا ودِّع، فقد صفر القطار ... وبانت عن نواظرنا الديارُ
فما في القلب غير سعير شوق ... وما في الفكر إلاَّ الإدْكارُ!
هما في كل آونة وأرض ... رفيقانا إذا شط المزار
وهل بعد النوى والحب إلاَّ ... هما، أم هل خبا لهما أوارُ
فأي صبابة عاشت، وأبقتْ ... على كبدٍ، وأي حشاً تجار
وأي نوى تصان من الرزايا ... ويؤمن في نواحيها العثار؟
ذر الجمرات تحلم في حشانا ... فقد قرَّت، وطاب لها القرار!
غنينا بالعواطف في هوانا ... هي السلوى لنا، وهي اليسار
إذا استعرت، فقل تلف المعنى ... وإن غنَّت فقل أين الهزار
حنيني في صميمي ذو جناح ... يرفرف في ضلوعي وهو نار
نجوم الليل وهي معلقات ... يطير من الحنين لها شرار
وعين الشمس، وهي تغيب عنا ... يبين من الفراق بها احمرار
ولو سمع الزمان أنين ثكلى ... لعاجله من الحزن انتحار
تساورنا على من ودعونا ... هواجس حولها نشأ الحوار
تركناهم على شوق حيارى ... يُصان إلى الأسى عنهم شعار
نود لو أن يكون لنا إليهم ... جوانح للقاء بها يُطار!

* * *

لقد شهد القطار أسى وداع ... فلم يخطر له إلاّ الفرار
ترفق يا بعاد بقلب أم ... وهيفاء براها الانتظار
لتلك، وهذه داران: دارٌ ... بقلبي، أختها في الشمس دار
فأنّى سرتُ كان القلب بعضاً ... وأنّى كنت للشمس انتشار؟

القروي والقطار

وهذا الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يصف قطاراً أقلّه بين بيروت وزحلة في عام ١٩١١م.

وناقلي حيث تحلو في الهوى نُقَلُ ... يمشي به الدافعان الشوق والأمل
كأنه جبلٌ يمشي على جبل ... يرسو إذا شاء طوراً ثم ينتقل
ما عاقه في السُّرى بردٌ ولا مطرٌ ... كأن لطم الحيا في وجهه قُبَل
يمشي الهوينى كخودٍ ناعس نهضت ... عند الضحى لم يزل في جفنها ثقل
ما سار نحو الشآم الميلَ مكتملاً ... إلاّ وجفن الدجى بالفجر مكتحل
طوراً تخفّ إلى استقباله قُلُلٌ ... وتارة تنثني من دربه قللُ

الترامواي في الآستانة

الشاعر معروف الرصافي يسطّر نقدَه وسخريته بالترامواي في الآستانة وذلك في عام ١٩٠٩م.

مرَّ الترام فقيلَ اركب فقلت لهم ... ذلَّ امرؤ كانَ مركوباً له الكسلُ
أما ترى وضِعافُ الخيل تسْحبه ... كأنه جبل في الأرض ينتقل

يحكي السُّلَحْفاة في عَرض الطريق وقد ... أمستْ بها في التأني يُضرب المثل
ترى به أوجُهَ الرُّكاب عابسة ... من فوقها شجر من تحتها مَلَل
في جانبيه وفي أعلاه قد كتبوا ... بيتاً تمثل في إنشاده الأوَل
«قد يدرك المتأني بعضَ حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلَلُ»

obeikandl.com

من أقدم أسفار البشرية

سفرٌ من الأسفار البعيدة الأمد، في مرضاة الواحد الأحد، سفرٌ يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، مهمٌ أهمية البيت المجيد، مباركٌ بركة زمزم والمقام، وطاهرٌ طهارة البيت الحرام، يتصدر الأسفار الإيمانية، ويرسم طريق الرفعة للإنسانية، وتتجلَّى فيه آثار الرحمة الربانية، خبره عجيب، نبأه غريب، أحداثه مثيرة، عظاته كثيرة، فائدته كبيره.

إنه سفر أبي الأنبياء وإمام الحنفاء، خليل رب العالمين، عدو الشرك والمشركين، رسم الطريق للهداة بعده، وكان أمة وحده ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ له عند رب العالمين أعظم الحظوة ولجميع المؤمنين فيه أسوة ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

وإبراهيم عليه السلام هو من أول المسافرين الذين تنقلوا في البلدان فراراً بالدين من عباد الأوثان، وأعداء الواحد الديان. فقد سافر من أرض الكلدانيين (بابل) إلى أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس، وسافر إلى مصر، ثم عاد إلى بيت المقدس ثم سافر بعد ذلك إلى مكة. وحديثنا هنا عن سفره من بيت المقدس إلى مكة المكرمة.

فتعال معي نتأمل أحداث هذا السفر العظيم لهذا النبي الكريم.

ونترك الحديث الآن لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حبر الأمة، وترجمان السنة، ليحدثنا عن هذا السفر، كما سمعه من سيد البشر ﷺ.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء إبراهيم عليه السلام بأمِّ إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي تُرْضِعه حتى وضعها عند البيت ـ أي الكعبة ـ عند دوحةٍ ـ أي: شجرة كبيرة ـ فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَّى ـ أي: ولَّى ـ إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفتُ إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فانْطَلَقَ إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنية حيثُ لا يَرَوْنَهُ، استَقْبَلَ بوجْهِهِ البيتَ، ثُمَّ دَعَا بهؤلاء الدعواتِ، فَرَفَعَ يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ وجعلت أم إسماعيل تُرضِعُ إسماعيل، وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ ما في السِّقاء، عطشتْ، وعطش ابنُها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال: يَتَلَبَّطُ ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصَّفَا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي**

الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهْ ـ تريد نفسها ـ ثم تسمَّعَتْ، فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعْتَ إن كان عندكَ غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ ـ أي تجعله مثل الحوض ـ وتقول بيدها هكذا، وجعلت تَغْرُفُ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال النبي ﷺ: **«رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تَغْرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً»** قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيْعَة فإن ههُنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يضيِّعُ أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السُّيولُ، فتأخُذُ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفْقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جُرْهُم مُقْبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً ـ أي يحوم على الماء ـ فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريًّا أو جريَّيْن ـ أي رسولاً ـ، فإذا هُمْ بالماء. فرجعوا، فأخبرُوهم، فأقبلوا وأمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزلَ عندكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم. فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشبَّ الغلام وتعلَّم العربية منهم وأنفسَهُم وأعجبَهُمْ حين شبَّ، فلما أدرك، زوجُوه امرأة منهم، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالعُ ترِكَتَهُ فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا ـ وفي رواية: يصيدُ لنا ـ ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيقٍ

وشدَّةٍ، وشكتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجك، اقْرئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرتُهُ، فسألني: كيف عيشنا، فأخبرتُهُ أنَّا في جهدٍ وشدةٍ. قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الْحَقي بأهلِكِ. فطلَّقها، وتزوَّج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعدُ، فلم يجدْهُ فدخل على امرأته، فسأل عنْهُ، قالت: خَرَج يبتغي لنا. قال: كيف أنتُم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعة وأثنَتْ على الله تعالى، فقال: ما طعامُكُم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابُكُم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: **«ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه»** قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلاَّ لمْ يُوافقاهُ. معنى لا يخلو: لا يخلط بهما غيرهما.

وفي رواية فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيدُ. فقالت امرأته: ألا تنزلُ، فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء. قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ـ قال: فقال أبوالقاسم ﷺ: **«بركةُ دعوة إبراهيم عليه السلام»** قال: فإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليه السلام ومريه يُثَبِّت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاكِ بشيءٍ؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام،

ويأمُرُكَ أن تُثَبتَ عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أُمْسِكَكِ، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نبلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزم، فلما رآهُ، قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، قال: ياإسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمركَ ربُّك؟ قال: وتُعينُني، قال: وأُعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبْني بيتاً ههُنا، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حوله. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يُنَاولُه الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبَّل منا إنك أنت السميع العليم. [رياض الصالحين: ١٨٧٦].